أعلام الأدب

إسخيلوس

للأستاذ دريني خشبة

ولد إسخيلوس عام ٥٢٥ ق . م فى قرية[١] كان يعكف أهلها على عبادة دمتيررية الزراعة ، وديونيزوس[٢] إله الخمر ، وهى قرية صغيرة متاخمة لقرية إيكاريا التى نشأ فيها الشاعر تسبيز الذى يعزون إليه نشأة الدرام

وقد ذكر لنا اسم أبيه فى الأبيات التى أوصى أن تنقش على قبره حيث يقول :

هنا فى سهل جيلا المثمر الخصيب
يضم هذا اللحد رفات إسخيلوس بن يوفوريون
فتى أثينا ، الذى شهد له الميديون
وعرفت بأسه مرثون

ولقد برع إسخيلوس فى الشعر منذ حداثته وكان يغشى حلقات الشعراء ويدرس طرائقهم ويحفظ أناشيدهم فإذا خلا إلى نفسه رددها وراح يهتف بها وقد راقته أغانى تسبيز فكان يقلدها وينظم المقامات على نسقها ، ثم فرغ لنظم الدرامة الطويلة التى ثار فيها على العرف فكتب له التوفيق حتى إذا انبثق فجر القرن الخامس قبل الميلاد ، وبلغ الفتى السادسة والعشرين من عمره استطاع أن يشهد الناس فنه فى أكبر مسارح أثينا حيث مثلت أولى رواياته فبهرت الأثينيين وعرضت عليهم لوناً جديداً من أدب الدرام كان ثورة عنيفة على الماضى ودعامة وطيدة لمسرح المستقبل

ولما نشبت الحرب بين فارس واليونان ألقى الشاعر يراعه وامتشق سيفه وأسرع إلى مرثون الخالدة هو وأخوه فأبليا بلاء حسناً ترك فى نفس إسخيلوس أثراً عظيماً من الزهو والاعتداد لم يمحه نصف قرن عاشه بعد ذلك

ثم تلت موقعة مرتون التى استشهد فيها أخوه (٤٩٠ ق . م) فترة من السلام فرغ فيها إسخيلوس إلى أدبه واستطاع خلالها أن يحرز النصر على جميع منافسيه فى حلبة الشعر للمرة الأولى فى المسابقة العامة عام ٤٨٤ ق . م

ثم دعا داعى الوطن بعد ذلك بأربعة أعوام فترك أثينا مع جميع أهلها ليشترك فى موقعة سلاميس ، وليناضل فوق صفحة البحر فى تلك المجزرة المروعة التى ذابت فيها جيوش كسرى وحطمت أساطيله وفر أثناءها إلى بلاده بعد أن شهد الهزيمة بعينيه ، فسلمت اليونان وسلمت أوربا إلى الأبد من التبربر

وقد اشترك بعد ذلك فى حروب تراقيه عام ٤٧٦ كما تدل عليه جذاذات من ثلاثيته المفقودة المسماة (ليكورجوس)

وفى سنة ٤٧٥ نظم مأساته (نساء إطنة) وكان إذ ذاك فى سفارة سياسية إلى سيرا كوزا

وقد رحل إلى سيرا كوزا مرة أخرى ، ونظم فيها درامته (الفرس) التى حازت الجائزة الأولى عام ٤٧٢

وفى سنة ٤٦٨ ظهر منافسه العظيم سوفوكليس فى ميدان المسرح فجأة ففاز على إسخيلوس بالجائزة الأولى ، وكان لفوزه أثر بليغ فى نفس إسخيلوس لم يمحه أن فاز (إسخيلوس) بعد ذلك بجوائز عدة كان يسيل لها لعاب الشاعر الشاب

وقد عاش إسخيلوس عشر سنوات لا ينسى هزيمة سنة ٤٦٨ حتى أن بعض المؤرخين يظن أنه هاجر إلى صقلية بسبب ذلك ، ويقول بعضهم إنه كان كلما ذكر تلك الهزيمة الأدبية دمعت عيناه وتم على الشاعر الشاب

(١) إسمها إيلبوزيس
(٢) إسمه الكامل ديونيزوس زجريوس

الإنجليزى . وقد ضمن الشاعر الإنجليزى Vohn Lydgate بعض أشعاره كثيراً من هذه القصص والحكايات العربية

ويعزو بعض علماء الأدب انتشار الأشعار الغرامية الشعبية التى كان ينشدها الموسيقيون المتجولون فى القرى الإنجليزية فى القرون الوسطى إلى نفوذ عربى لشابهتها كثيراً للأشعار الغرامية الأندلسية ، وبخاصة الزجل ، ويذكرون أيضاً كتابين كان لهما الأثر فى انتشار هذا النوع من الشعر الغرامى وهى كتاب « الزهرة » لابن داود وكتاب « طوق الحمام » لابن حزم وموضوعهما الحب العذرى ، وقد ترجما إلى اللاتينية[١]

هذه فكرة إجمالية عن « أثر اللغة العربية فى الثقافة الإنجليزية فى القرون الوسطى » وسأعالج ذلك الأمر « فى عصر النهضة » فى العدد القادم إن شاء الله .

عبد العزيز أمين عبد المجيد

(١) أنظر مقال الأستاذ جب عن الأدب العربى فى كتاب تراث الاسلام

وفى عام ٤٥٦ توفى فجأة فى مهاجره ودفنت رفاته فى جيلا .

هذه هى أهم الوقائع فى تاريخ حياة إسخيلوس . ولا نستطيع أن نتناول أدبه بالنقد أو التحليل قبل أن نقف قليلاً عند هـذه الوقائع نستخلص منها ما ينفعنا فى دراسته وما يكشف لنا عن نواحى نبوغه

وليس من شك فى أن نشأة إسخيلوس الأولى وبيئته كان لها أثر بعيد فى أدبه . بيد أن هذه النشأة وتلك البيئة ليسا شيئاً إذا قيسا إلى الأثر الكبير الصارم الحاسم الذى تركه فى نفسه خوض غمار تلك الحروب الدامية العنيفة التى شنتها على بلاده فارس ، والتى كانت حرباً بين جيش جرار كثيف يقدرون عدده بألف ألف أو يزيد ، وبين أمة بأكملها قليلة العدد شديدة البأس ساهمت جميعاً ، رجالا ونساء وأطفالاً ، فى آلام الحرب ، حتى لقد هجرت أثينا إلى إحدى جزائر البحر ، وقام رجالها فى السفائن يصارعون المنون ويغالبون الموت . ويهزأون بجبروت إجزرسيس ، حتى كسروا شوكته وظهروا على أساطيله وأطعموا السمك ووحوش الماء لحوم أبطاله

لقد تركت مرتون فى نفس إسخيلوس أثراً لا يعدله إلا أثر سلاميس ، وليس يعدل هذين الأثرين شىء آخر فى نفس الشاعر الجندى الذى أخذ يبنى مجده الأدبى على أكوام من أشلاء القتلى الذين أكلتهم هذه المجزرة الهائلة بين عدو قوى كثير العدد وبين أمة ضعيفة بعددها كثيرة بوطنيتها استطاعت ببضعة آلاف أن تقهر أكثف جند عرفه التاريخ

خرج إسخيلوس من هاتين المعركتين شخصاً آخر شديد الايمان بقوة السماء مكبراً لسلطان الآلهة أيما إكبار ، مقتنعاً باليد العليا التى تسهر على الكون وتدبر أموره ، وترد الحق إلى المظلوم وتكبح جماح الظالم مهما كان ذا حول وطول وقوة . . وقد ظهرت هذه الروح فى أكثر دراماته التى نظمها بعد هـذه الحرب ، وهى أروع ما نظم

أما سنة ٥٠١ فهى مفتتح القرن العظيم الباهر ، القرن الخامس قبل الميلاد الذى يزهى على الزمان بما أفاء على الانسانية من علم وأدب ومن نور وعرفان ... وقد كان مطلعه مطلع سعد لعبقرية إسخيلوس ، فقد مثلت أولى دراماته فى أولى سنى هذا القرن ، وسنه حينذاك لم تتجاوز السادسة والعشرين

ولعل عام ٤٨٤ ق . م هو أهم الأعوام فى تاريخ الأدب اليونانى جميعاً ... وذلك أن مؤرخى هذا الأدب يجعلونه بداءة الفترة الذهبية المجيدة ليس فى تاريخ الأدب اليونانى فحسب ، بل فى تاريخ الأدب الصرف قاطبة ، وهم يبدأونها بهذا العام الذى أحرز فيه إسخيلوس أولى جوائزه الأدبية فى المسابقة العامة بدرامة مفقودة قلب بها الأوضاع القديمة رأسا على عقب ، ووضع الدعامة القوية القويمة للمسرح الحديث ، حتى ليصح أن يطلق على هذه السنة : السنة الأولى تاريخ الأدب المسرحى

وهم يجعلون هذه الفترة بين عامى ٤٨٤ و ٤٣١[1] حينما أحرز يوريبيدز أخرى جوائزه بدرامته الخالدة ميديا ... وعلى ذلك تمتد الفترة إلى ثلاث وخمسين سنة مثل فيها على مسرحى أثينا أكثر من ألف درامة منها تسعون لأسخيلوس ومائة وثلاث وعشرون لسوفوكليس وثمانون ليوريبيدز وأكثر من مائتين لشاعر عظيم لم يحفظ لنا الأثر اسمه ومئات أخرى لشعراء نعرف بعضهم ونجهل بعضهم الآخر ... وليس الكم فقط هو العجيب فى هذا الإنتاج الباهر ، بل الكيف أيضاً هو الذى يسحر ويبعث على الدهش ، فهذه الدرامات السبع الباقية فقط من إسخيلوس ، والسبع الباقية من سوفوكليس ، والثمانى عشرة الباقية من يوريبيدز هى ثروة فائقة من تراث هذه الفترة ، والقارىء يقف حيالها ذاهلاً لعمق التفكير وجمال الأداء ؛ وقوة السبك ، وسمو الغاية والخلو من الزيف والبهرج ... وهى مع ذلك ليست أجل ما أبقت عليه يد الفناء من الثروة الضائعة ، إذ أن أكثر الدرامات التى فاز فيها الشعراء بالجوائز الأولى ما تزال مفقودة ، والأمل معقود على نجاح الكشف فى أسكندريتنا للحصول على الدرر والدرر من نتاج الذهن اليونانى العظيم .

وقد لا نجد فى تاريخ الأدب المسرحى فترة تشبه هذه الفترة اليونانية إلا فترة الأربعين[2] الذهبية فى تاريخ الأدب الإنجليزى فى عصر اليصابات ، فقد كتبت ومثلت فى هذه الفترة جميع درامات شكسبير ومارلاو وبن جونسون وبومون وفلتشر وماسنجر ووبستر وهايود ... الخ ... غير أن الشعراء الإنجليز فى هذه الفترة كانوا على كل حال تلاميذ هـذا السلف الصالح من شعراء أثينا ،

(١) يعدها لويس كامبل مترجم اسخيلوس وسوفوكليس إلى ٤٣٠ ق . م

(٢) يجعلها بعض مؤرخى الأدب الانجليزى ثمانى وثلاثين سنة

وكثيراً ما سطوا على آثارهم واستباحوا أخيلتهم وانتحلوا طرائقهم التي أوفوا بها على الغاية

وكما تتشابه الفترتان في الإنتاج الأدبي للمسرح فكذلك تتشابهان في الباعث على النهضة الأدبية في كل منهما . فلقد كان الباعث في الفترة اليونانية هو هذه الحرب الضروس التي شنتها فارس على اليونان والتي كانت مرحلتها الأولى في مراثون ، ومرحلتها الثانية في سلاميس حيث حطم أسطول إجرسيس ، مما أيقظ الروح القوي في هيلاس وأجج نيران الوطنية في قلوب الأثينيين خاصة ، فجاءت النهضة الأدبية المسرحية وليدة هذا الروح

أما الفترة الإنجليزية فقد جاءت عقب تحطيم الأرمادا الأسباني اللجب الذي أعده فيليب الثاني لغزو انجلترا . . . وهذا التشابه في الباعث بين الفترتين يدل على ما بين الوطنية والأدب من وشائج قوية يزيدها النصر قوة ويمهد لها بمزيج عجيب من الحماسة والكبرياء يقابله مزيج آخر من المآسي والآلام

* * *

وبعد ، فماذا صنع إسخيلوس من هذا كله ؟ وكيف ثار ثورته على الماضي العتيق وشاد هذا البنيان الشامخ ؟ وما هي هذه المثل التي كان ينشدها ويعمل على إقامتها لتكون نبراساً للذهن اليوناني ؟ وإلى أي حد نجح في جهاده الشاق الجميل الطويل ؟ ومن يا ترى كان عونه في هذا الجهاد المشكور المبرور ؟ وكيف يستطيع كاتب أن يستعرض كل هذا التاريخ ، وأن يلخص درامات إسخيلوس السبع أسرع تلخيص وأقصره في مثل هذه الفصول المقتضبة الضيقة ؟

روى المؤرخون أن إسخيلوس كان لا يأنف أن يرى النقص في إحدى دراماته فيعترف به قبل أن يأخذه عليه أحد من النقاد ثم يعمل على إصلاحه في الدرامة التي تليها ، وقد يحدث أنه يفوز بالجائزة الأولى في إحدى المسابقات بدرامة كان يشك أكبر الشك في نجاحها ، فإذا تناول الجائزة لم يأبه أن يلفت الناس حوله إلى نواحي النقص في تلك الدرامة التي حازت إعجابهم واستولت على شعورهم ... وفي هذا دليل على أن إسخيلوس كان ينشد المثل الأعلى لفن الدرامة ، وكان لذلك يدأب على عمل التجارب ليأخذ بالأصلح وليتوق ما لا غناء فيه ، وكان لا يأنف من الانتفاع بجهود الآخرين وتجاربهم ، وكان يعنى عناية خاصة (بتكنيك) المسرح فكان بذلك أول المخرجين الأكفاء وأعظمهم ... وهو أول من خفض عدد أفراد الخورس وزاد عدد الممثلين ، وجعل الغناء والإنشاد في المرتبة الثانية بعد الكلام والحوار . وهو أول من ابتكر الثلاثية ، أي المأساة الكبيرة التي تتكون من ثلاث مآس تربطها عقدة واحدة ويجمع بينها موضوع واحد . وقد كان يعتبر هوميروس معينه الأول ، فكان يقول إن مآسيه فتات من مائدة هومر ، لكنه مع ذلك ابتكر الدرامة السياسية وانتزعها من الأحداث الجلائل التي كانت تحدق بوطنه في ذلك العصر ... وكان يعنى عناية فائقة (بالحبكة) الدرامية في مآسيه ويجري في خلالها تجاريب الحياة التي تمرس بها فكانت دراماته تشبه التماثيل الفنية الرائعة التي يعنى فيها الفنان بإبراز معنى خاص يجتهد في أن يبرز لأول وهلة للرائي فيملك عليه لبه ويستحوذ على إعجابه

وكان السراة من أهل أثينا وأغنياؤها يتسابقون إلى الإنفاق على درامات إسخيلوس ، وقد ثبت أن بركليس نفسه ، وهو سيد هذا العصر قد كان ال : (خوريجس Chorêgus)(1) لأكثر من درامة من درامات إسخيلوس

وأبرز ما يلفت الإنسان من دراماته هو هذا الروح السفسطائي الذي يشيع فيها جميعاً ، حتى لقد دعاه المؤرخون أول مبشر بمذهب السفسطائيين قبل أن يوجد السفسطائيون ، فهو الذي لم يبال أن يتناول في دراماته ذوات الآلهة بالنقد والتجريح ، ومهد بذلك لموجة الشك التي طغت على اليونان بعد ذلك ... حقيقة لقد سبقه كثير من الفلاسفة إلى ذلك ، لكن أحداً منهم لم يجرؤ أن يصنع كما صنع هو حين قدم للمسرح درامته الخالدة العظيمة (بروميثوث) والتي كانت ثورة على سيد الأولمب فتحت الطريق على مصراعيه للملحد الأكبر وأعظم أدباء اليونانيين (يوريبيدز)

وكان إسخيلوس يؤمن إيماناً تاماً بالقضاء والقدر ، وأنه لا حيلة للإنسان في دفع ما يحل به من أذى ولا سيما إذا تمت النكبة وكان يعتقد أن كل المصائب هي نتائج لمقدمات تنتهي إليها حتماً ، وأن كل الأمور العظام هي كذلك نتائج لأمور أقل منها شأناً ، ومقدمات لأمور أخرى أجل منها وأعظم ... وهذه هي وحدة الكون ...

(1) هو الرجل الغني الذي كان يلجأ إليه الشاعر ليؤجر له فرقة من المنشدين وليتولى الانفاق على الدرامة حتى تمثل